مقياس منهجية البحث الأدبي: السنة الثالثة أدب عربي

د/ سعاد حميدة

الأفواج(1+2+3)

المحاضرة5: مناهج البحث الأدبي والعلوم الاجتماعية والإنسانية.

1_ ضرورة مراجعة المنهج في دراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية:

تسير قاطرة التحديث بشكل جيد ومتسارع، يحكمه إيقاع المرحلة ومتطلب الفترة، من حيث وجوب مواكبة المتغير العالمي في تلاحق الثورات وتراكم المعرفة وثورات التكنولوجيا، الأمر الذي ينعكس بدقة ومنهجية على ساحة العلوم في مجتمعنا العربي، والتي نتوقع لها مزيدا من التقدم الفعلي على المستويات التطبيقية بالشكل العصري المناسب، في ظل المتغير السياسي والاقتصادي والمجتمعي والقيمي والإعلامي والثقافي، والتساؤل المطروح: أين الدراسات الإنسانية والمجتمعية من هذا التباري؟.

وإثارة القضية واجبة في ظل حجم المتغير الثقافي، بما يتطلبه من ضرورة الانخراط في خضم برامجه وخططه المنهجية، بحيث تحرك المياه الراكدة في منهجنا تجاورا لأزمة تعليم الجيل بمنطق الاستظهار الموروث، مع التحول الحقيقي إلى منطق الابتكار والتفكير والاجتهاد على طريقة جيل الرواد، ثم تجاوز الاجترار والاستهلاك المطروق، إلى فتح نوافذ في أبواب الفكر الإنساني على مستوى المنهج_ أساسا_ قبل أي اعتبار آخر.

وحتى لا تكون هناك مغالاة في طرح الأشياء فلنتأمل الظاهرة الثقافية المعاصرة من خلال حركة التباري الفعلية في فلسفات التحديث والتطوير، والأخذ بمناهج التجديد، لنجدها تكاد تنحصر في حركة العلم التطبيقين حيث يقف أمامها الإنسانيون إما موقف الدهشة والانبهار، أو موقف المتفرج الصامت وفي كلا الأمرين فالنتائج غير طيبة في صف منظومة العلم الإنساني.

ولنا ان نتصور على سبيل المثال_ وليس الحصر_ ما يحدث في بنية أي مؤتمر حول تحليل مقاصد الإصلاح والتحديث على المستوى الصحي أو البيئي أو الهندسي أو التكنولوجي والاقتصادين لتظل العلوم الإنسانية في مؤخرة ذاكرة التقدم_ على استحياء شديد_ على الرغم من خطر التحديث في فروع تلك العلوم على ما تشمله في مستوى الأداء السياسي والإعلامي والأدبي والتاريخي والاجتماعي والنفسي واللغوي.

عن الإصلاح الحقيقي لأي ظاهرة يبدأ من استكشاف جوانبها وحقائقها والاعتراف بها دون مخادعة الذات أو القناعة بمعطيات الواقع، والحل هو إعادة النظر في المنهج كلما دعت الضرورة لذلك، ولابد من الاتساق

مع الذات في إطار تحقيق التفاعل الجاد مع المتغير ، بدلا من حالة الجمود أو الركون إلى اجترار المادة الجاهزة من لدن اجتهادات الآخر فحسب.

2_ ضرورة التجديد في مناهج البحث الأدبي والنقدي:

من المؤكد أن حاجتنا تزداد مرحليا لقراءة المشروع المنهجي في العلوم الإنسانية والعربية، لاسيما حين سلطت الأضواء في المرحلة الحالية على تطوير المناهج في العلوم الطبية والهندسية والأساسية بكل فروعها مما قد يؤدي إلى مظنة إسقاط العلوم الإنسانية من ذاكرة الأمة.

يأتي التجديد في مناهج الدرس الأدبي مطلوبا من خلال عدة توجهات واعتبارات أساسية، نذكر أهمها كالآتي:

1_ وجوب مراجعة المادة القرائية التراثية والمعاصرة، مع إدراك الفروق الجوهرية بين منظور القدماء ومنظور المجدّدين، والأخذ في الاعتبار ضرورة قراءة الآخر فهما وحوارا وجدلا ونقاشا دون افتراض سطوة روح المؤامرة او التوقف عند جد الانغلاق أمامه، أو الانبهار به، بما لا يتسق مع منهجية البحث العلمي في أي من فروع المعرفة الإنسانية.

2_ محاولة رد الاعتبار والهيبة لدرسنا الأدبي والنقدي، الذي شهد نمطا من الانحدار المرحلي بتحوله إلى نمط مدرسي عاجز عن الوفاء بما تتطلبه نصوصنا الأدبية من قراءات متجددة، تتطلب التسلح بالأدوات النقدية الدافعة لفهمها وتحليلها من منظور سعة الأفق، وكثرة المطالعات للمناهج انطلاقا من احترام التعددية، ووجوب الاعتراف بالآخر والتعرف عليه، ولعل البداية مثلا بقراءة الاستشراق من قبيل المعرفة أو النقد يظل مدخلا مطلوبا للبحث عن نظرية عربية متوازنة، ربما تستطيع المواءمة بين الموروث والمعاصر دون انفصام معرفي، أو انقطاع فكري تحت أي من ضغوط التبعية أو الهيمنة.

3_ تجاوز مرحلة النرجسية واستعلاء الذات، وكذا مرحلة الدهشة والانبهار أمام الآخر أو التماهي معه، ومثلها تكون مرحلة الاستخفاف بكل ما هو قديم أو قومي لأنه كذلك.

4_ اجتياز مرحلة العشوائية والفوضى التي تشهدها_ أحيانا_ بعض الدراسات الأدبية والنقدية، دون الوصول إلى نتائج تستحق الرصد والتسجيل في صورة قاعدة علمية، فمن المؤكد أن ساحة الدراسات العربية ابتليت بصور من التكرار والاجترار، حكمت على مناهجها ودارسيها بالنمطية والجمود إلى حد التراجع في بعض الأحيان، ربما بسبب غيبة القراءات والترجمة للنظريات الغربية أو الانكماش والتقوقع تجاه مقولات نقادها

أو الاكتفاء بالنقل النظري دون تقدير خصوصية مادتنا الأدبية التي بنيت على أساسها وانطلقت من عباءتها الدراسات النقدية.

5_ جدة البحث عن نظرية عربية حقيقية، تتسق مع عطاء أدبنا القديم من واقع قراءات متجددة، يحكمها المنهج التحليلين وما حوله من دراسات عصرية تنتقي من المناهج التاريخية والاجتماعية والنفسية وغيرها ما يجلي حقائق الأشياء، وما يهدف إلى طرح الجديد بعيدا عن الترميز أو الإفراط في الغموض أو الافتعال في طرح النتائج والآراء والأفكار.

6_ وجوب تعرف حقيقة البحث العلمي الجاد، وتحليل خطواته وآلياته وصولا إلى خصائص البحث الأدبي بصفة خاصة، مع تعرف الطبيعة النوعية للبحث، والصيغ العصرية للمعالجة من خلال استقراء المصادر وضمان صحة المرجعية.

7_ الانطلاق من تعددية القراءة للمناهج، بما يسمح بتعرّف طبائع الفروق والحدود الفاصلة بينها من جانب، والانطلاق إلى التوقف عند أفضلها، وفي التعددية القرائية إثراء لفكر الباحث وإدراك لمستويات التحول عبر المناهج المتباينة.

8_ دراسة أخلاقيات البحث والباحث في حقول الدراسة الأدبية، التي يصعب فيها الادعاء أو الزعم بقول الكلمة الأخيرة لما تحتمله من وجهات النظر، التي ربما تتعارض حول القضية الواحدة، مع تأكيد أصالة البحث من واقع الصدق المرجعي القائم على احترام نسبية الأحكام ونسبة الآراء إلى أصحابها، واستقصاء المراجع والمصادر واستقراء ابعاد الظواهر تجاوزا للوقوف عند القشور مع محاولة النفاذ إلى لباب المادة العلمية.

9_ تجاوز التهاون في أساليب التقييم والمحاسبة، والنأي عن التجاوز تحت أي من مسميات المجاملة التي يجب أن تبرأ منها مناهجنا الأدبية، وامتداد المحاسبة إلى مناطق التجديد والإضافة والابتكار، وتجليات شخصية الباحث بين سطور بحثه، بعيدا عن السطحية أو التعميم، أو الاكتفاء بالنمطية والتقليد، مما يقتل البحث والباحث في مهده، ويهدد بالانحدار في مدارج الفكر الإنساني بصورة مزرية غير مقبولة منطقيا ولا منهجيّا.

وفوق كل هذه الاعتبارات يظل المدخل الحقيقي لتحديث منهج البحث الجاد في الدراسات الأدبية معلقا بدرجة الانفتاح العقلي، والقدرة على فهم كتابات الآخر والاستعداد للمناقشة والحوار، دون تشنجات أو

تعصّب، والانطلاق إلى التفرقة بين ما هو علمي وما هو غير ذلك، غلى بقية الاعتبارات التي يجب أن توضع في حسبان الباحث المعاصر، حتى يستطيع أن يضيف إلى ما ابدعه جيل الرواد من اجتهادات ونتائج.

3_ النسق العام للبحث الأدبي:

أ_ طبيعة المشروع:

تبدا حدود النسق العام للبحث من طبيعة المشروع المنتقى باعتباره موضوعا وفكرة وقضية وموقفا ومشكلة، بما يفتح المجال للمناقشة وإعمال العقل، وتوظيف الأدوات في إطار مساحة معقولة للإضافة والابتكار والتجديد، فالبحث المتميز يبدأ من إثارة مشكلة مهمة، وليست تافهة أو مفتعلة، حيث يطرح سؤالا يبحث من ورائه عن إجابات، أو قضية تبحث عن إضاءات، أو موقفا يحتاج عرضا ومناقشات، أو عقدة تبحث عن حلول علمية وعملية.

ب_ التقيد بمنهجية علمية منظمة:

يبدأ البحث في العلوم الإنسانية من تحوله إلى قيمة منهجية تطرح الفرضية والمقدمة وتحترم العينات والنماذج والأطروحات وصولا إلى النتائج المحددة أو المفتوحة، بما يتجاوز الجهود السطحية في قراءة الأشياء أو في إصدار الأحكام.

ج_ التحديد الزماني والمكاني:

يحسن تحديد الأسوار الزمانية والمساحات المكانية للبحث في أضيق الحدود، كما يحسن تجاوز الموضوعات العامة، واختزال المناطق الخطابية والموضوعات الإنشائية أو التزيّد العلمي من باب الرغبة في المباهاة، ولعل المدخل الآمن لبنية النسق المنهجي الصحيح للبحث يبدا من قدرة الباحث نفسه على توظيف المعلومة في موضعها الدقيق وغلا حدث الخلل في النسق، وبدأ الخروج عن الإطار المحدد له.

ومع توظيف المعلومة تأتي الدقة والامانة في حدود الاقتباس، مع وجوب التدخل والتعليق الذاتي للباحث مناقشة وتحليلا وتعقيبا_ اتفاقا أو اختلافا_ او جدلا واقتراحا طبقا لما يحتمله النص من مناقشات، وليس من قبيل المزايدات أو المبالغات أو هيمنة الانطباعات.

ومن جهة أخرة ننوه إلى أن الباحث الأدبي مطالب بالتزام حدود بحثه، حيث يبدو الإفراط في التوسع حول الموضوع أو الخروج من دائرته دافعا للعبث بمقدرات البحث والباحث، بما يمثل عبثا يقلل من قيمة البحث، وربما يؤدي إلى إهدار طاقاته وجهوده فيما لا طائل من ورائه، كما تظل رؤية الباحث مؤشرا مهما من

مؤشرات المنهجية الواعية والواعدة، وهو ما يبدأ من مستوى تمثّله للموضوع وإجادة حالة الوعي بأبعاده ومراميه، بمنأى عن الغموض والضبابية واللبس، وبمعزل عن القلق المنهجي، والاضطراب الفكري الذي يهدد البحث والباحث والمنهج على السواء.

د_ التوزيع المنهجي لعناصر البحث وأجزائه:

تمتد دقة التوزيع المنهجي للبحث عبر أبوابه وفصوله ومباحثه الجزئية بعد مقدمة البحث وتمهيده لينتهي حول أهم نتائجه وتوصياته، وما يمكن أن يتحول منها إلى برنامج عمل، أو تزكية منهج بما يقدم إفادة متواصلة للباحثين.

هـ_ حسن الصياغة للمقدمة والخاتمة:

ويتواصل النسق العام للضبط المنهجي في البحث، بدءا من صياغة المقدمة التي ينبغي إحكامها بعد نهاية البحث، فإذا هي آخر ما يكتبه الباحث وأول ما تطلع عليه لجنة الفحص والقارئ، مما يدعو إلى وجوب التأني في الكتابة، والدقة في المراجعة اللغوية والسياق الأسلوبي والنحوي، وتتناول الإشارات الواضحة إلى دوافع الباحث إلى اختيار الموضوع من حيث أهميته وعلاقته بالدراسات السابقة القريبة منه، والمنهج الملائم لدراسته والأدوات وأهم مصادره ومراجعه.

وعلى المستوى نفسه، ينبغي أن تصاغ الخاتمة، لا أن تقف عند حدود تلخيص الرسالة فليس للتلخيص ما يغري على الإضافة العلمية، بل يجب التركيز_ فقط_ على النتائج والتوصيات وبيان الطبيعة النوعية واوجه الجدة فيها، بما يكشف حقيقة الجهد العلمي المبذول، وترك الكلمة الأخيرة للدراسات المماثلة في الميدان نفسه طبقا لتعددية المناهج العصرية، بما تشهده من تطور في مستوى الأداء والمعالجة كلما تطورت مساحات المعرفة والفكر.

انتهـــــــــــــــــي